أقدم جمعية علمية عربية

جماعة إخوان الصفاء

الدكتور عبد الحليم منتصر

نشأت في البصرة في القرن الرابع الهجري، وكان لها فرع في بغداد، تبادل أعضاؤها السائل العلمية، التي عرفت باسم رسائل إخوان الصفاء.

وقد اشتهر أعضاؤها بالآراء العلمية الحرة، واتخذوا لهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، وقالوا أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية الإسلامية فقد حصل الكمال. ويقول المستشرق دي بور (لقد أفلحت الحكمة اليونانية في أن تستوطن الشرق، وذلك عن طريق إخوان الصفاء).

وقد اشتهر من أعضاء هذه الجماعة خمسة هم (المقدسي) و(الزنجاني)، و(المهرجاني) و(العوني)، و(ابن رفاعه).

ونظرا لآرائهم العلمية الحرة التي اشتهروا بها، فقد تقول عليهم الناس، فاستتروا تقية من السلطان ورجال الدين. وقد دعوا إلى تثقيف العقول والنفوس ونشر العلم والعرفان، بمذهب يجمع بين الفلسفة والدين.

وقد قسموا أنفسهم إلى أربع مراتب، الأولى من الشبان حتى الخامسة عشرة وتسمى مرتبة ذوي الصنائع، والثانية ممن أتموا الثلاثين، وتسمى مرتبة الرؤساء، والثالثة ممن أتموا الأربعين وتسمى مرتبة الملوك، والرابعة، وهي المرتبة العليا من الذين أتموا الخمسين.

ولم يحل اضطراب الأمور السياسية في عهدهم دون تقدم الفكر العلمي الإسلامي، فمن حسن حظهم أن الأمراء كانوا يتنافسون في تقريب العلماء والأغداق عليهم، وكان قد تم نقل العلوم الإغريقية، وشرع المفكرون في التصنيف بدلا من النقل. وكان من مبادئ أعضاء هذه الجماعة الا يعادوا علما من العلوم، أو يهجروا كتابا من الكتب، وألا يتعصبوا لمذهب من المذاهب، وأن يجمعوا العلوم جميعها، وينظروا في الموجودات بأسرها.

وكانت اجتماعات هذه الجماعة خاصة، لا يحضرها سوى الأعضاء، الا أنهم أذاعوا رسائلهم ونشروها بين الناس، واطلع عليها المثقفون، ودخلت رسائلهم الأندلس.

وتبلغ رسائل اخوان الصفاء اثنتين وخمسين رسالة ورسالة، على حد تعبيرهم، مقسومة

على أربعة أقسام ، رياضية تعليمية، وجسمانية طبيعية، ونفسية عقلية، وناموسية الهية، وتليها الرسالة الجامعة لما في هذه الرسائل كلها المشتملة على حقائقها.

وقد ذكروا أن مصادر علومهم، كتب مختلفة، هي كتب الحكماء، من الرياضيات والطبيعيات والكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والقرآن والكتب الطبيعية، وتحوى صور الموجودات من أفلاك وبروج وكواكب، والكائنات من نبات وحيوان ومعادن.

ويتضمن القسم الأول من رسائلهم الرياضيات،لما للعدد من مقام في فلسفتهم، ولعلهم تأثروا في ذلك بالفيثاغوريين ولعدد أربعة شرف الصدارة عندهم، لأن الطبائع أربع، والعناصر أربعة، والأمزجة أربعة، والأركان أربعة، والفصول أربعة، والجهات الأربع، والرياح الأربع والمكونات الأربعة.

فالعناصر أربع وهي: النار والهواء والماء والتراب.

والطبائع أربع وهي: الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف.

والأمزجة أربعة وهي: الدموي والبلغمي والصفراوي والسوداوي.

والفصول أربعة وهي: الربيع والصيف والشتاء والخريف.

والجهات أربع وهي: الشمال والجنوب والشرق والغرب.

والرياح أربع وهي: الصبا والدبور والجنوب والشمال.

والمكونات أربعة وهي: المعادن والنبات والحيوان والإنسان.

وكذلك تكلموا في العدد والهندسة والنجوم، وتدخل الموسيقى في القسم الرياضي، فتكلموا في صناعتها وأصلها وفي امتزاج الأصوات وتنافرها وفي أصول الألحان وقوانينها.

وفي القسم الثاني من رسائلهم تحدثوا في الطبيعة، وكانوا في أكثره مشايعين لأرسطو وفي أقله شايعوا الفيثاغوريين والأفلاطونيين، فتكلموا عن الهيولى، والصورة، والزمان والمكان والحركة والآثار العلوية وعن المعادن والحيوان والإنسان والنفس واللذة والألم، والأصوات وإدراك القوة السامعة لها.

وتكلموا في التطور والارتقاء، قالوا إن المعادن متصل أولها بالتراب وآخرها بالنبات، والنبات متصل آخره بأول الحيوان، واعتبروا النخل آخر المرتبة النباتية مما يلي الحيوانية، وآخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان، كالقرد في التقليد، والفيل في الذكاء والنحل في حسن التدبير.

وخص إخوان الصفاء القسم الثالث من رسائلهم بالنفسانيات والعقليات، يقول البستاني أنهم كانوا في كثير منها على رأي الفيثاغوريين، وفي بعضها أفلاطونيون وأرسطوريون، وتكلموا في ما بعد الطبيعة.

أما القسم الرابع من هذه الرسائل فيختص بالآراء والديانات، وما اتصل بها من المذاهب الروحانية والفلسفية والعلمية، وكانت غايتهم التوفيق بين الدين والفلسفة، وهي محاولة لم

يغفلها ابن سيناء والفارابي وغيرهما من الفلاسفة ولكن هؤلاء حرصوا على أن تكون مطابقة لما جاء به القرآن، أما الإخوان فقد مزجوا الإسلام بآراء وأديان مختلفة. يقول (دي بور) أنهم أرادوا أن يضعوا دينا عقليا يعلو الأديان جميعا وبه يتم التوفيق بين الشريعة والحكمة.

وفي الحق أن رسائل إخوان الصفاء كما يعتقد دي بور إنما هي أشبه بدائرة معارف لاشتمالها على خلاصة ما انتهت إليه علوم الأقدمين وعقائدهم على غير تعمق في عرض المسائل وبحثها مع ما يتخللها من رموز وأحاجي. ويقول أبو حيان التوحيدي (قد رأيت جملة منها، وهي مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية)) ألا أنها كتبت بلغة أنيقة جذابة، جميلة الصور والتشابيه فلا يضيق مطالعها ذرعا، وانها لتستاهل التحقيق العلمي الرصين.

يقول إخوان الصفاء أن رسائل القسم الأول أربع عشرة رسالة، الرسالة الأولى، وهي العدد ماهيته وكميته وكيفية خواصه، وبمعرفته يترج المرتاض إلى سائر الرياضيات والطبيعيات، وأن علم العدد جذر العلوم، وعنصر الحكمة ومبدأ المعارف.

تناولوا فيها الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات والإلهيات، قالوا والرياضيات أربعة أنواع أولها الاريثماطيقي (الحساب) والثاني الجو مطريا (الهندسة)، والثالث الاسطرونوميا (الفلك) والموسيقي. فالموسيقى معرفة تأليف الأصوات وبه استخراج أصول الألحان والأسطرونوميا هو علم النجوم والبراهين التي ذكرت في كتاب إقليدس و الارثماطيقي معرفة خواص العدد وما يطابقها من معاني الموجودات التي ذكرها فيثاغورس ونيقاموخس.

وكانت الرسالة الثانية في الهندسة، وبيان أهميتها وكمية أنواعها، وكيفية موضوعاتها، والثالثة في النجوم، شبه المدخل في معرفة تركيب الأفلاك، وصفة البروج. وسير الكواكب، والرابعة في الموسيقى، والخامسة في الجغرافيا والسادسة في النسبة العددية والهندسية، والسابعة في الصنائع العلمية النظرية وفيها تعديد لأجناس العلوم والثامنة في الصنائع العلمية والمهنية وتقدير أجناس الصنائع والحرف ... وهكذا.

أما رسائل القسم الثاني وهي سبع عشرة منها واحدة في السماء والعالم، وثانية في الكون والفساد، وثالثة في الآثار العلوية تتحدث عن حوادث الجو، وتغيرات الهواء من النور والظلمة والحر والبرد، وتصاريف الرياح من البحار والأنهار والغيوم والضباب والظل والمطر والرعد والبرق والثلج والبرد والهالة وقوس قزح والشهب وذوات الأذناب، ورابعة في كيفية تكوين المعادن وكمية الجواهر المعدنية وكيفية تكوينها في باطن الأرض وغيرها في ماهية الطبيعة في الحيوان والنبات والمعادن والرسالة السابعة خاصة بأجناس النبات وأنواعها و كيفية تكوينها و نشوئها, واختلاف أنواعها من الأشكال والألوان والطعوم والروائح في أوراقها وأزهارها وثمارها وحبوبها وبذورها وصموغها ولحائها وعروقها وقضبانها وأصولها وغير ذلك من المنافع وأن أول مرتبة النبات متصلة بآخر مرتبة المعادن, وآخر مرتبتها متصلة بأول مرتبة الحيوان. والثامنة في أصناف الحيوان وعجائب هياكلها وغرائب أحوالها, والغرض منها هو البيان عن أجناس الحيوانات وكمية أنواعها,

واختلاف صورها وطبائعها وأخلاقها وكيفية تكوينها ونتاجها وتوالدها وتربيتها لأولادها, وأن أول مرتبة الحيوانية متصلة بآخر مرتبة النبات, وآخر مرتبة الحيوانية متصلة بأول مرتبة الإنسانية.

وتتناول الرسالة التاسعة من هذا القسم تركيب الجسد, والبيان بأنه عالم صغير, وأن بنية هيكله تشبه مدينة فاضلة, وأن نفسه تشبه ما كان في تلك المدينة , والغرض منها معرفة الإنسان جسده وبنيته المهيأة له. وأن انتصاب قامة الإنسان أجل أشكال الحيوانات. والعاشرة رسالة في الحاس والمحسوس والغرض منها هو البيان عن كيفية إدراك الحواس محسوساتها... وهكذا.

يقول إخوان الصفاء في الرسالة الأولى من القسم الرياضي:

(أعلم أيها الأخ البار الرحيم بأنه لما كان من مذهب إخواننا الكرام، أيدهم الله النظر في جميع علوم الموجودات التي في العالم، من الجواهر والأعراض والبسائط والمجردات والمفردات والمركبات والبحث عن مباديها وكمية أجناسها وأنواعها وخواصها وعن ترتيبها ونظامها، على ماهي عليه الأن وعن كيفية حدوثها ونشوئها عن علة واحدة ومبدأ واحد من مبدع واحد جل جلاله، ويستشهدون على بيانها بأمثلة عددية وبراهين هندسية مثل ما كان يفعله الحكماء الفيثاغوريون احتجنا أن نقدم هذه الرسالة قبل رسائلنا كلها، ونذكر فيها طرفا من علم العدد وخواصه التي تسمى (الارثماطيقي) شبه المدخل والمقدمات، لكيما يسهل الطريق على المتعلمين إلى طلب الحكمة التي تسمى الفلسفة، ويقرب تناولها للمبتدئين بالنظر في العلوم الرياضية).

ومهما يكن الرأي في شأن هذه الجماعة ورسائلها، فالرأي عندي أنها جمعية الرؤساء، والثالثة ممن أتموا الأربعين وتسمى مرتبة الملوك، والرابعة، وهي المرتبة العليا من الذين أتموا الخمسين. علمية بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وأن أعضاءها تناولوا في رسائلهم بطريقتهم الخاصة جميع معارف عصرهم، وكانت معالجتهم للموضوعات التي تناولوها بطريقة علمية لا شك فيها، من حيث جمع الحقائق وترتيبها، واستقراء النتائج وبحث الماهية والتركيب. صحيح أنهم لجأوا في كثير من الأحيان إلى الإشارات والرموز.. إلا أن آراءهم تل على سعة في الفهم ودقة في العرض، ولا مراء في أن رسائلهم عامرة بالحكمة والفلسفة والرياضيات والطبيعيات ووصف للمعادن والنبات والحيوان وظواهر الطبيعة..

وإذا صرفنا النظر عما بها من رموز ومعميات وإشارات لا يسيغها العلم الحديث، فإنها تعد بحق من الأعمال العلمية الخالدة، فرسائلهم الاثنتان وخمسون رسالة ورسالة، انما هي دائرة معارف موسوعية محيطة بمعارف العصر وما تقدمه من عصور وأن دراستها لتحتاج إلى جهد عصبة من أولى العزم من العلماء يتوافرون على الغوص في أعماقها لاستخراج ما بها من كنوز ليس إلى حصره سبيل.

❖ ❖ ❖